في تلك الليلة

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

في تلك الليلة
وائل لاشين
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغــوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com
رقم الإيداع: 2018/11496
الترقيم الدولي: 978-977-6634-08-4
الطبعة الأولى: 2018

وائل لاشين

في تلك الليلة

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

الوحدة..

الوحـدة تجعلـك تُمـارس الأشـياء بالطريقـةِ الأصعـب، والأبـطء، فالوحـدة صنيعـة الفـراغ، وقـت زائـد عـن حاجتـك..

كُلنـا وحيـدون لكـن هنـاك مـن يُـدرك تلـك الحقيقـة وهنـاك مـن لا تسـمح لـه سـاقية الحيـاة بإدراكهـا أو حتـى الإنتبـاه لهـا، يقولـون أن الهـدف مـن إغـماض عينـي الثـور هـو ألا يشـعر بقـرب المسـافة التـي يـدور في فلكهـا فيتوقـف، لكـن الأقـرب هـو ألا يـدرك أمـر وحدتـه فينقطـع شـغفه، ويهمـد سـعيه..

متى بدأ الأمر؟

هو لا يتذكر تحديدًا متى !

لكنه حدث تلك الليلة

* * *

في تلك الليلة..

شارعٌ بمنطقة العباسية العتيقة، العاشرة مساءً، إحدى ليالي شهر مارس، انهمرت الأمطار تغسل الموجودات جميعهن، انعكس ضوء المصابيح الصفراء على السيارات المغسولة لينزلق على الأسفلت فيصنع ظلالًا مُتشابكة، بينما يَصدر صوت الشيخ رفعت صادحًا بالقرآن من أحد المحال المغلقة التي آثر صاحبها إقفالها حيث لا بيع ولا شراء، لم يتبقَّ سوى تلك القهوة التي حَرص صبيُّها على جمع مقاعدها ومناضدها الخشبية في الداخل وممارسة مهامه في صمت ملبيًا نداءات زبائنها المعتادة دون ضجرٍ أو تعبٍ، يتلقى الطلب فيصيح بمساعده مكررًا إياه:

واحد شاي سكر برة يا ابني لفلان بيه..

ولعة للباشا

واحد حمص بالليمون والكموووون للأستاااااااذ...

شابان يرتديان زِيًا موحدًا يبدو أنّهما يعملان بالسوبر ماركت الكبير بالميدان الرئيسي، يقضيان ساعة راحتهما في تناول شطائر الفول والطعمية ثم احتساء أكبر عدد ممكن من أكواب الشاي الداكن بالنعناع في محاولة -فاشلة بالطبع- لتحفيز خلايا المخ على البقاء منتبهًا أطول قدر ممكن من الوقت..

بآلية معتادة يرفعُ الصبي الأكواب الفارغة ويستبدلها بأكواب مياه مثلجة رغم برودة الجو، ثم يهبط عليهما بالطاولة ليستكملا هدنة العمل في التباري بينهما على صاحب أعلى صوت لرقع أقراصها العاجية وإيقاظ الأموات، بينما ترثي أم كلثوم حالها

ليلي ونهاري.. فكري بيك مشغول

وحياتي لك وحدك ولك على طول

تتقلص أعداد الحاضرين فيجلس الصبي لالتقاط الأنفاس متابعًا مباراة لدوري أبطال أوروبا ثم تنزلق عيناه أسفل الشاشة لتستقر على وجه ذلك الشاب الجالس في ثُباتٍ ينظُر للفراغ وبجانبه كوب قهوة جفّ منذ زمن، وآخر يحتوي على ملليمترات من الماء المتبقي، شاب اعتاد الجلوس يوميًا في نفس المكان، يبدو في أوائل الأربعينيات شعره أسود متفحم تتخلله بعض الشعيرات البيضاء تتهدل على جبهته لتكاد تلامس نظارة بلا إطار تجثم على عينين لامعتي السواد تحيطان بأنف متناسق ينتهي بشارب مُتصل بلحية كثيفة أضفت على وجهه وقارًا، يرتدي قميصًا تُرِك مفتوحًا حتى صدره، وبنطال قماش أسود، وحذاءً لامعًا.

يدنو منه الصبي بابتسامة ودودة وهو يرفع الأكواب الفارغة:

ـ تؤمر بحاجة تانية يا أُستاذنا؟

انتبه له، بادله الابتسامة:

ـ شكرًا..

وبينما يدسّ يده في جيبه ليُنقده ورقة مالية، يعاجله الصبي:

ـ ما تخلّي..

فيلوّح بيده شاكرًا، يُخرج الصبي عدة أوراق نقدية مُكرمشة ويناوله الباقي، يلتقطها متعمدًا إفلات جنيهين كبقشيشٍ، يستدير لينصرف فيستوقفه الصبي:

ـ حضرتك ماجِتش إمبارح ليه؟

يندهش الشاب من التساؤل فيفسر الصبي:

ـ مش عوايدك يعني، بتشرفنا كل يوم بقالك فترة.. يا ترى في حاجة ضايقتك مننا؟

ـ لا أبدًا.. كنت في الشغل بس ورجعت متأخر.

ـ هو حضرتك بتشتغل إيه؟

ـ هو انت اسمك إيه؟

ـ رمضان يا باشا..

ـ ممم، أنا دكتور، دكتور نَفسي.

يرفع يده بالتحية بابتسامة واسعة:

ـ أهلًا وسهلًا يا دكتور، ياريت تشرّفنا كل يوم.

ـ إن شاء الله..

وانصرف..

أنا لما حبيتك خطر على بالي.. اللي جرالي واللي راح يجرالي

* * *

يصعد آسر درجات السّلم المُظلم دائمًا في تؤدةٍ وهو يتحسس موضع قدمه حتى يصل للطابق الثالث ثم يُخرج سلسلة مفاتيحه وهو يجرب أحدهم تلو الآخر، وأثناء ذلك تسقط السلسلة لينحني وهو يمسح بكفه

الأرض بحثًا عنها، يلمح بطرف عينيه الضوء النافذ أسفل باب الشقة المجاورة يقطعه خيال لقدم أحدهم تتحرك في تتابُعٍ، تهدأ الحركة ثم تستكين تمامًا ويليها صوت يُشبه حفيف الأشجار، كمن يمسح بيده باب الشقة من الداخل، حفيف منتظم بمتتاليةٍ عدديةٍ تزداد سرعتها تدريجيًا، يقترب آسر من الباب لاستبيان الأمر فينقطع الصوت..

تتسع حدقتا عينيه بفعل الظلام..

يدنو من الباب..

يلصق أذنه مرهفًا السمع فتلتقط صوت أنفاس..

يضغط رأسه أكثر بجدار الباب يكاد يسمع نبض قلبه..

صوت الأنفاس يعلو رويدًا رويدًا..

ظلام

سكون

صوت حشرجة مكتومة.. ثم..

تنطلق صرخة مدوية من الداخل ليفزع آسر عائدًا لشقته ويقفز المفتاح الصحيح داخل الكالون وكأنه فزع هو الآخر، وفي أقل من الخمس ثوانٍ يكون قد أُغلِقَ بابه وأُوصِدَ مزلاجه خلفه.

يجلس في الصالة على أقرب مقعد ليلتقط أنفاسه ثم يقوم بارتداء ملابس النوم ولا ينسى ضبط منبه هاتفه لإيقاظه صباحًا، يدلُف إلى غرفته، يدير تلفازة على قناة المجد للقرآن الكريم وينزلق أسفل فراشه ويغط في نومٍ عميق...

* * *

الثالثة فـجرًا..

صرخـة مدويـة مـع طـرق صاخـب عـلى بـاب الشـقة هـبّ آسر عـلى أثرهـما فزعًـا ليتحسـس وجهـه بحثًـا عـن نظارتـه فـلا يجدهـا، يـدس يـده أسـفل وسـادته ليخرجهـا ويرتديهـا ويقفـز عـلى الأرض عـاري القدمـين ويغـادر حجرتـه، يقـف خلـف البـاب متأهبًـا وجلًا وبصـوت متحـشرج حـاول إخراجـه صارمًـا:

ـ مين؟!

يدنـو مـن البـاب يحـاول فتـح الشراعـة الزجاجيـة المنقرشـة فيلمـح في الظـلام شـيئًا مـرق مسرعًـا ثـم صـوت إغـلاق بـاب.

* * *

صباح اليوم التالي..

يفتـح عينيـه ببـطء، يؤلمـه الضـوء المتسـلل مـن بـين خصـاص النافـذة، يرتكـز عـلى رسـغه الأيمـن، يلتقـط هاتفـه بيـده الأخـرى، ينظـر الى التوقيـت بعيـون حافيـة..

التاسعة والنصف..

تبًـا

سيُجازى بالتأكيد..

تأخـر عـن ميعـاد اسـتيقاظه اليومـي مـن جـرّاء أرق البارحـة، منـذ أن سَـكن تلـك البنايـة قبـل شـهرين وهـو يجـد صعوبـة في تنظيـم حياتـه كـما كانـت مـن قبـل، هـبّ نشـطًا يركـض الى الحـمَّام حـافي القدمـين، قـذف وجهـه

بالماء، خلّل خُصلات شعره بأصابعه على عجلٍ، ارتدى ملابسه، قفز داخل حذائه انتشل هاتفه ثم غادر مسرعًا، لا داعي لاستخدام المصعد، ليس لديه ترف الوقت لكن ها هو ذا المصعد يقف في انتظاره، يقفز داخله فتُصدر أرضيته الخشبية أنينًا، يجذب بابه الحديدي المتآكل ثم يطوي ضلفتي بابه الخشبى الداخلي الذي يغلق للخارج شأن جميع المصاعد القديمة، يضغط الزر وهو يتخيل رد فعل مديره المباشر بالمستشفى..

حتمًا سيوبخه على تأخيره

لماذا لم يتحرك المصعد اللعين

صوت امرأة تصيح بالخارج

ـ أعمل إيه؟ أعمل إيه يا ربي؟!

يُفتح المصعد مرة أخرى لتدخل امرأة في حالة فزع، ينسى آسر أمر تأخره ويتابعها باهتمام، امرأة محجبة تبدو في منتصف الثلاثينيات، أنف مارن دقيق، حاجبان حادان مرسومان بدقة تخالهما جناحي طائر محلق، فم رقيق مبتسم رغم التوتر طُلي بالأحمر، قصيرة ذلك القصر الذي لا تلحظه سوى بالاقتراب، تحرك المصعد أخيرًا فاهتزت، لاحظ نظرتها المترددة فسأل:

ـ أقدر أساعدك بأي حاجة؟

وصل المصعد ففتحت الأبواب وغادرت مسرعة ثم توقفت والتفتت إليه:

ـ ممكن توصلني لمدرسة ابني بسرعة علشان فيه مشكلة؟

شعر أن في الأمر خطبًا ما..

وأدرك أن ردَّ فعل مديره سيتجاوز التوبيخ بالتأكيد.

* * *

في سيارة «إلنترا» كحلية اللون تبلغ من العمر الخمس سنواتٍ تتراكم أتربةٌ داخلها في كل اتجاه وتداري مقاعدها زجاجات مياه بلاستيكية فارغة وأوراق وتقارير طبية ومواد إعلانية - تلك التي تُبتَلى بها إجباريًّا أثناء قيادتك- جلست الأم جوار آسر ولم تتخلص من حالة التوتر بعد، بينما تحول الأخير من حالة القلق تجاه رد فعل رئيسه المباشر ليستبدلها بحالةٍ من القلق تجاه تلك المرأة الجالسة جواره، لم يَقدِر على رفضِ طلبها أو حتى الاعتذار بأدبٍ، لا يدري إن كان بداعي الخوف أم الإعجاب، سألها عن عنوان المدرسة فأخبرته بتفصيلٍ مرتعشٍ، المسافة بين العباسية ومدينة نصر حيث مدرسة الابن لا تستغرِقُ أكثرَ من عشرين دقيقة، لكن في طُرق القاهرة الأمر يختلف، حسابات أُخرى تتعلق بإشارات المرور وسيارات المسئولين ومشاجرات السائقين وتحميل الميكروباصات لزبائنها، الخلاصة: استغرق الطريق ما يقرب الساعة، وكانت كافيةً لتَقِص الأم مآساتها وكأنها وجدت قِسَّ الاعتراف خاصتها.

* * *

أول ما لفت انتباهه لـ (كارما) ـ اسم الأم كما عرفَه لاحقًا ـ أناقتُها، فبرغم الموقف الذي يبدو صعبًا فقد حرصَتْ على اختيار ملابسها بعناية وتناسق، ترتدي بدلةً نسائيةً سوداءَ وبلوزةً ورديةً، وحذاءً أسودَ بكعبٍ حاول إنقاذ قِصرها الملحوظ، جلست بجانبه مُلتصقة القدمين تحتضن بكفيها حقيبةً نسائيةً مطرزةً سوداءَ أيضًا، مسلطة العينين صوبَ الطريق دون التفاتة، انطلق في الهروب من الشوارع الرئيسية لأخرى جانبية في محاولة لاختصار الوقت، لكن لم يسلم في النهاية من الإشارات

المعطّلة، قذف بأسطوانة لمجموعةٍ موسيقيةٍ مُجمعَّةٍ ولمحها بطرفِ عينيه وقد ارتخت ملامح وجهها قليلًا ليبادرها بالتساؤل:

ـ خير إن شاء الله!!

ترددت قليلًا قبل أن تُخبِرَه بأن ابنها «آدم» قد تعرَّض للمتاعب اليوم في المدرسة وأنه قد تم استدعاؤها تليفونيًّا للحضور على وجه السرعة، هزّ رأسه في انتظار الإفصاح عن نوعية تلك المتاعب لكنّها اكتفت بما قالته واكتفى هو أيضًا، انتزعَ سيجارةً من العلبة ودسَّها في فمه، وقبل أن يُشعِلَها أشار لها بما يعني:

(تسمحيلي أدخَّن؟)

فأشارت بما يعني:

(وانا مالي، يكش تولع)

بعد فترة صمت سألته عن مهنته، ولما عرفت امتهانه الطب النفسي، بدا عليها الاهتمام، ثم بدأت تتخلى عن تحفُّظِها تدريجيًا لتخبره بحماسٍ:

ـ إنت ربنا بعتك ليا من السما.

كان يود أن يخبرها أن مديره سيرسله إليها مرة أخرى لكن الموقف بم يكن يحتمل، بدأت في سرد قصة حياتها منذ أن تخرجت في كلية الآداب جامعة عين شمس حتى تزوجت زميلها بعد قصة حب عنيقة دامت لأكثر من الأربع سنوات، لكن يشاء القدير أن يبتليهما بتأخُّر الإنجاب لأكثر من أربع سنوات، عكِفا خلالهم على استشارة العديد من خبراء الإنجاب حيث اختلفت آراؤهم حول السبب واجتمعوا على الحيرة..

وما البديل؟

لمَ لا نطرق باب التلقيح الصناعي؟

رفض الأب الفكرة في البداية لكن..

من يصمد أمام إلحاح النساء؟

وما المانع في ظل وفرة المال خاصة وأن الزوج لديه شركة استيراد وتصدير كان يَملُكُها والده قبل أن يرثه..

وبالفعل، أجرت عملية التلقيح بإحدى المستشفيات المتخصصة في ذلك المجال وتلقوا اتصالًا بعد فحص أول عينة للدم تبشِّرُهم:

- ألف مبروك.

أخيرًا وبعد تسعة أشهر تمت عملية الوضع بنجاحٍ، ليرزقهما الله بتوأمين؛ نوح وآدم، كانت جميع المؤشرات تُشيرُ الى صعوبةِ صمودِهما في الحياة، لكن مرَّتْ الأيامُ والسنون لتُخالفَ توقعاتهما، كَبِرا سويًا أمام أنظار أبويهما وتبددت أحزان الأمس تمامًا وكانت الأمور على مايرام، إلى أن...

توفى نوح منذ عامٍ -وكان في سنِّ التاسعة- جرَّاء هبوطٍ حادٍ في الدورة الدموية أثناء اللعب مع أخيه، سحقَ الأمرُ قلبَ أبويه خاصةً الوالد الذي لم يستطع الصمود أكثرَ من شهرٍ ليلحق بولدِه، حملت الأم لقب أرملة وأحزان ومسئوليات، كانت أصغرها تربية طفل يتيم الأب والأخ.

أما عن آدم فكان طفلًا مختلفًا تمامًا، هادئ الطباع حتى إنه كان لا يشكو من مرضٍ قَطّ، بخلاف أخيه، وكان أكثر ما يلفت انتباه أبيه دومًا، أمران، أولهما أنه لم يكن يبكي قَطّ.

وهنا توقفت عن الحكي فقد وصلا أمام المدرسة، صف آسر سيارته أسفل شجرة ضخمة وأثناء عبورهما للباب الحديدي الضخم سألها:

ـ طب والأمر التاني؟

نظرت إليه في تردد:

ـ أرجوك لو لفت انتباهك أي شيء غريب في آدم ماتحرجهوش وتتعامل مع الأمر طبيعي.

* * *

بوابة حديدية ضخمة كُتب أعلاها بحروفٍ إنجليزية ما ترجمَتُه (مدرسة الربوة للغات) على جانبها الأيمن يقف رجل أمنٍ بزِيه المميز يحمل بيده جهاز لاسلكيّ ما إن رآها بادرها بالسؤال:

ـ حضرتك والدة الطالب آدم عدنان المرصفي؟!

أومأت برأسها فألصق الجهاز بفمه:

ـ والدته وصلت يا افندم..

عاجله الطرف الآخر:

ـ دخَّلها على مكتب المديرة.

اصطحبهما فردُ الأمن بعد أن أوصى زميلًا له بمتابعة مهامه لحين عودته، عبروا رُدهةً فارهةً ينطلق بجوانبها صوتُ عزفٍ موسيقيٍّ صادر عن إحدى الغرف الجانبية يقترن بغناء أطفال، حتى توقف الرجل عند حجرة زجاجية كُتب عليها «المدير».

طرق بهدوء قبل أن يَفتح البابَ ويدلُف، بدا الاهتمام على ملامح سيدة المكتب وهي تتطلع لوجه كارما بينما تقترب وكأنها لا تملك صبراً

حتى تصل إليها، صافحتهما وهي تُطلِقُ سهام نظراتها المتسائلة إليهما لتقرأ كارما استفسارها الصامت وتجيب:

ـ خال آدم.

أومأت السيدة برأسها تفهمًا قبل أن تضغط أحد الأزرار وتطلب استدعاء الابن، سيدة تبدو على مشارف الخمسين ترتدي نظارةً طبيةً، ينسابُ شعرها الناعم القصير فوق رأسها حتى يكاد يلامس حاجبيها العريضين، ترتدي فستانًا قصيرًا لا بُدَّ وأنه انحصر عن قدميها حين جلست، أمسكت بقلمها وهي توجِّهُ كلامها إلى الأم الذي بدا حاسمًا ومقتضبًا.

ـ حالة آدم كُل مدى بتسوء عن الأول، النهارده الموقف وصل لمرحلة Risky جدًّا بما لا يدع مجال للانتظار أكتر من كده..

سكتت هنيهة ثم استطردت:

-إدارة المدرسة اجتمعت وأصدرت قرار بمنح آدم أجازة استثنائية حتى استقرار حالته النفسية، ومش محتاجة أقولك إن البديل الأوحد لقبول الأجازة دي هي النقل لمدرسة تانية، فمفيش قدامك غير القبول، أنا بعتذرلك جدًا على الكلام ده، بس احنا في نقاش لأكثر من ثلاث ساعات بنحاول إيجاد حلول تانية لكن دون جدوى.

التفتت كارما إلى آسر بنظرة يأسٍ مستسلمةٍ كمَن تطلب الدعم، هنا تدخَّل موجهًا حديثه للسيدة:

ـ ممكن أعرف آدم عمل إيه؟

خلعت عن وجهِها نظارتها ثم شرعت تحكي...

* * *